الباب الأول

فلسفة أسلحة حرب اللاعنف

الفصل الأول

خيارات التصدي للظلم

١ - مقدمة.

٢ - المسارات الاستراتيجية للتصدي للظلم.

٢ - ١ - مسار اليأس.

٢ - ٢ - مسار الخلاص الفردي.

٢ - ٣ - مسار النضال السياسي.

١- مقدمة

حين تؤمن قوى التغيير في المجتمع بحتمية التغيير، وتتوفر لديها الإرادة والرغبة الحقيقية في إحداث التحولات؛ لا تصمد أمامها أية عراقيل يصنعها معاندوها، حيث يتأهب العقل لإزاحة تلك التحديات عبر عبقرية البحث في الخيارات المختلفة، وإيجاد البدائل المناسبة التي يمكن أن يلجأ إليها المجتمع للوصول إلى غايته العظمى، وهدفه الأسمى. تلك الخيارات التي أبدعتها البشرية - ولا تزال - عبر حقب التاريخ المتتالية - والتي حظي الكثير منها بالتحليل والتنقيح الأكاديمي والاستراتيجي - حتى أضحت الخيارات العلمية والعملية متوفرة لمن يطلبها، وما على المجتمعات سوى البحث والتنقيب عنها، ثم هضمها وتفهمها جيدًا، واختيار ما يناسبها، وإعادة تشكيلها من خلال التجربة والممارسة، لتضيف إلى موسوعة الخيارات نتاج تجربتها، وتثري عالم التغيير بما أبدعته من حلول ووسائل ذهبية.[١]

٢- المسارات الاستراتيجية للتصدي للظلم

تتعدد الاختيارات أمام المجتمع للتفاعل مع الأوضاع التي

يفرضها عليه النظام السياسي الديكتاتوري، فبعد أن تتم دراسة الواقع يقرر المجتمع إما أن يقاوم لتحقيق أهدافه وأحلامه، أو ييأس ويستسلم لمشاريع النظام.

٢-١- مسار اليأس:

أ) أما الاستسلام فينبع من حالة اليأس التي قد تفرضها قسوة الممارسات القمعية. فتتخبط قوى المجتمع المقاومة في حالة من الفراغ يفرضها النظام الذي

(١) أول من استخدم مصطلح «**الوسيلة الذهبية**» المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في معرض حديثه عن نظرية التحدي والاستجابة في الموسوعة التاريخية التي عكف عليها مدة أربعين عامًا وتحمل عنوان «**دراسة التاريخ**»، والتي صدرت في اثني عشر مجلدًا طبع أولها عام ١٩٣٤ وآخرها عام ١٩٦١.

يسن القوانين المنظمة لعملية الصراع السياسي، والتي تعمل دائمًا في صالحه، فيُحَرِّم على المقاومة الممارسات غير المقيدة بهذه القوانين، ويعاقبها بقسوة إذا كسرت هذه القوانين. فتستسلم المقاومة بشكل مباشر مذعنة إلى النظام وخادمة له. وقد تستسلم بشكل غير مباشر عبر ممارسة المعارضة المقننة ضمن الهامش المسموح به، وهو استسلام مقنع يوهم الأتباع بالحركة والبذل، لكنها حركة في المكان، تعكس حالة من دوران المقاومة في حلقة مفرغة نتيجة جهلها بقواعد الصراع السياسي، وقوانين التغيير داخل المجتمعات.

ب) أما وجه العملة الآخر لخيار الاستسلام فهو اللجوء إلى العنف غير المدروس كالتخريب، وإحراق المنشآت، وإشاعة الفوضى، بدون دراسة لتبعات هذا العمل أو الخطوة التالية له، وهو عنف يعكس اليأس، حيث لايرى المجتمع أمامه بديلًا آخر – أو هكذا يظن. وتتوقف قدرة العقل على التفكير في فلسفات واستراتيجيات وتكتيكات بديلة، فيتحقق للنظام الديكتاتوري مخططه المرسوم، حيث تصبح الفرصة سانحة لاستخدام القمع المقنن ضد المقاومة العنيفة لتصفيتها، وإرهاب المجتمع كي لا يفكر في تكرار محاولات التغيير.[١]

٢-٢- مسار الخلاص الفردي:

وهو مسار لا ينوي السائر فيه عادة ممارسة الفعل السياسي، هو يبحث فقط عن النجاة قدر الإمكان من تعسف النظام، ويتمثل هذا المسار في التحايل اليومي على الظلم، من خلال التصرف الفردي والمؤسسي غير المعلن للعامة، وهو مايطلق عليه في اللغة الإنجليزية (Low - Profile action)،[٢] والبحث عن أساليب تقلل من خسائره

(١) لا يعني هذا أن الأنظمة المتسلطة تسعى لتأسيس المقاومة العنيفة، فتلك الأنظمة تفضل دائمًا استسلام المجتمع وعدم المقاومة. ولكنها أقدر وأكثر خبرة في التعامل مع المقاومة العنيفة منها في التعامل مع المقاومة اللاعنيفة الذكية. وإذا قدر لها الاختيار لاختارت التعامل مع الآلة العسكرية بدلًا من التعامل مع الشعوب.

2 Schock, Kurt (2005): Unarmed insurrections. People power movements in non-democracies, University of Minnesota Press, Minneapolis, MN, p.14.

في ظل المعاناة، وعلى أمل الحصول على قدر من الخلاص الفردي. مثل الامتناع عن دفع الضرائب، والتهرب من الخدمة العسكرية، وترويج الإشاعات، وتأسيس مؤسسات بدون تراخيص رسمية، وارتكاب مخالفات ثم التظاهر بالجهل بقوانين وسياسات الحكومة. وعادة ما تكون تلك الأنشطة فردية ومحلية ولا تنبع من دوافع سياسية، ولا تأتي في سياق عمل تغييري منظم ومقصود. فهي لا تزيد عن كونها محاولات فردية للتحايل على النظام وليس مقاومته أو شن الحرب عليه،[١] والبحث عن أية فرصة للهروب من قبضته لا تسديد ضربات له، وهي وإن كانت تحدث بشكل طبيعي إلا أنه يمكن استثمارها من قبل المقاومة في عمل احتجاجي أو مقاوم.

أما إذا قرر المجتمع المقاومة من أجل إحداث التغيير فيلجأ إلى النضال السياسي الدستوري أو فوق الدستوري.

٢-٣- مسار النضال السياسي

وله أيضًا مستويات متعددة:

أ) **النضال الدستوري** أو السلمي عبر القنوات الرسمية باستخدام الطرق المقننة مثل التصويت، والاستفتاءات، والانتخابات، ورفع الدعاوى القضائية، والتي يُطلق عليها الوسائل السلمية الباردة. وهذه الوسائل تتوفر وتعمل بفاعلية في الدول ذات أنظمة الحكم التعددية أو الديمقراطية والتي تشهد بالفعل بناءً مجتمعيًا قويًا وفاعلًا.

ب) **النضال فوق الدستوري**، ويشمل كلًا من العنف المدروس [٢] وحرب اللاعنف.

---

(١) أحيانًا تتم مثل هذه الأعمال من قبل مجموعات منظمة، لكنها تنفذ في إطار البحث عن سبل للخلاص لتلك المجموعات ولا تتم في إطار تغيير الواقع.

(١) تدرج علميًا كل أشكال العنف في النضال فوق الدستوري لأنها تتجاوز الأطر الدستورية، لكننا نميز هنا بين العنف الذي هو وليد استسلام ويأس، والعنف المدروس الذي تقرره بعض حركات المقاومة مثل حركات الضباط في الجيش التي تقوم بتنفيذ انقلابات. لذلك صنفنا العنف العبثي العشوائي في مسار اليأس، بينما صنفنا العنف المدروس في النضال فوق الدستوري.

العنف المدروس: كالانقلابات العسكرية وحرب العصابات.[١]

حرب اللاعنف: عبر استخدام أساليب الفعل غير المباشر كالتظاهرات، وأساليب اللاتعاون كالإضرابات وأساليب التدخل المباشر كإرهاق الإدارات الحكومية بالطلبات. وسيأتي شرح هذه الأساليب لاحقًا في الباب الثاني من الكتاب.

(٢) يندرج اللاعنف في نفس مستوى العنف من حيث التصنيف، إذ كلاهما لا يخضع للقنوات الدستورية، فحركات العنف تعتمد على استخدام العنف المادي والتهديد به من أجل إقناع الخصم بالاستجابة لأهدافها. ومن أشكال العنف الانقلابات العسكرية وحرب العصابات والاغتيالات والاختطافات والتعذيب وإحراق المباني وتفجير المنشآت. كذلك تقاوم حرب اللاعنف الظلم من خارج الأطر القانونية والدستورية، لكنها لا تعتمد استخدام العنف المسلح أو التهديد به، بل تعتمد أسلحة أخرى فعالة جوهرها هو تقويض قوة الخصم السياسية والاقتصادية.

نموذج المسارات الاستراتيجية للتصدي للظلم[١]

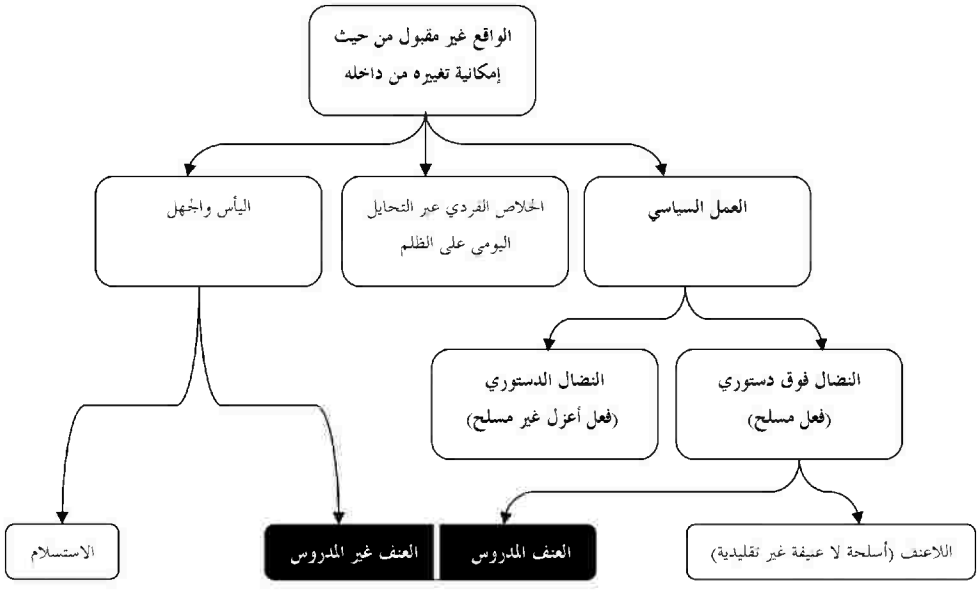

شكل ٢: الخيارات المختلفة للممارسات السياسية داخل المجتمع حيث تمثل حرب اللاعنف خيارًا ينقذ المجتمع من ويلات العنف، ولا يحبسه في ظلمات اليأس التي تفرضها وطأة الواقع الاستبدادي

(٣) هذا التقسيم للمسارات المحتملة للفعل مقتبس مع إجراء بعض التعديلات من كتاب:
Schock, Kurt (2005): Unarmed insurrections. People power movements in democracies, University of Minnesota Press, Minneapolis, MN, p.-non. ١٣.